فن التشبيه عند الإمامين الباقر والصادق(عليهما السلام)

الأستاذ الدكتور
زهير غازي زاهد
الكلية الإسلامية الجامعة - النجف الاشرف
الباحث
عبدالله خليل زباري العبادي

اختصر القزويني (ت ٧٣٩ هـ) تعريف التشبيه بقوله: «مشاركة أمر لآخر في معنى»[١]، فهو «بيان أنَّ شيئاً أو أشياء شاركت غيرها في صفة أو أكثر بأداة هي الكاف أو نحوها، ملفوظة أو مقدّرة، تقرِّب بين المشبه والمشبه به في وجه الشبه»[٢].

لكن في الحقيقة لا توجد مشاركة حقيقية أو طبيعية بين المشبه والمشبه به، بل هي مصنوعة ومحدثة من قبل الأديب.

إنَّ إحداث علاقة جديدة بين طرفين لا صلة بينهما في عالم الواقع، لتعميق شعورنا بالمشبه هو ما يستهدفه البليغ، فقول الرسول محمد (صلى الله عليه وآله) : «مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من رَكِبها نجى ومن تخلَّفَ عنها غَرِقَ»[٣] أوجد علاقة جديدة بين أهل بيته (المشبه) وسفينة نوح (المشبه به) بواسطة أداة التشبيه (مثل، والكاف)، حيث يشتركان بصفة واحدة وهي انحصارية النجاة، هنا جعلنا الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) نشعر أكثر بأهمية أهل بيته عليهم السلام ودورهم في نجاة الأمة المؤمنة، ففي عالم الواقع لا توجد علاقة بين المعجزة وبين أهل البيت عليهم السلام، وهنا تكمن قدرة البليغ في ايجاد علاقة بينهما من خلال تشبيه أحدهما بالآخر بشرط وجود وجه شبه حقيقي مشترك بينهما.

والمعيار المحدد للتشبيه عن سواه من مجاز وكناية هو الأدوات الرابطة بين طرفي التشبيه وهي نمطان:

١ ـ أدوات اصطلاحية: (الكاف)، (كأنَّ)، (مثل).

٢ ـ أدوات نسبية متفاوتة بين أفعال ومصادر وأسماء تقوم مقام الأدوات الأولى مثل (حسب).

«إن المعرفة الجديدة التي يكتسبها المتلقي من الصور التشبيهية النادرة البعيدة القائمة على الخلق والإبداع والابتكار تزيد المعنى المراد نقله وضوحاً...

والوضوح في وجه الشبه لا يعني أن يكون المعنى مبتذلاً، وإنَّما يعني ذلك الايضاح الذي تفيده المعرفة الجديدة المكتسبة، التي يصل إليها المتلقي عن طريق العلاقة المبتكرة والوجه المكتشف، الذي أدركه المبدع بيقظته الفعلية وتأمّله الدقيق لعناصر الصورة، حتى تمكن من تنسيقها تنسيقاً جديداً يتوافق مع ذاته ومشاعرها، والمعاني الفعلية التي يريد نقلها واستطاع أن يزيدها وضوحاً بالصورة التي أخرجها عليها، وأوهم المتلقي أنّها متمثلة بها»(٤).

ومن هذا المنطلق يمكن القول إن من أسباب تأثير التشبيه في النفوس أنه ينقل النفس من الخفي إلى الجلي، فكثير من التشبيهات ينقل النفس عن المعقول إلى المحسوس، وينقل الشيء المعنوي في صورة شيء حسي، وهذا ما تألفه النفس وتزداد منه قرباً، إذ العلم المستفاد من طريق الحواس يفضل العلم المستنبط من جهة العقل وهو أسبق إلى النفس.

ففي قول الإمام الباقر (عليه السلام) : «العلم خزائن، والمفاتيح السؤال، فاسئلوا يرحمكم الله، فإنَّه يؤجر في العلم أربعة: السائل والمتكلِّم والمستمع والمحب»(٥).

نجد صورة تشبيهية بليغة حيث حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه، وما وجه الشبه بين العلم والخزائن، هل هو النفاسة والمفاجئة؟ إذ عند فتح الخزائن يفاجئ الناظر بوجود أشياء ثمينة وعجيبة، وإذا كانت المفاتيح الحديدية هي الطريق لفتح خزائن الملوك والتجار والأثرياء فما مفاتيح خزائن العلم؟ هنا

يأتي التشبيه الثاني لحل ما أحدثه التشبيه الأوّل من تساؤل لدى المتلقي، ولكن التشبيه هنا مقلوب، فبدلاً أن يقول الإمام: والسؤال مفاتيح، فيصير كلام الإمام هكذا: العلم كالخزائن والسؤال كالمفاتيح. نرى الإمام قلب التشبيه وهذا ما زاد تشبيهه جمالاً، إذ عندما جعلنا التشبيه الأوّل نتخيل العلم خزائن إذ ليس أمامنا الآن إلاّ خزائن وهذه تحتاج إلى مفاتيح، هنا جعلنا الإمام بهذا التصور نفتش عن المفاتيح، وهنا يقدّم لنا عوناً من خلال تشبيه آخر يفسِّر لنا مفاتيح هذه الخزائن التي لا يملكها إلاّ العلماء، وهذه المفاتيح هي السؤال، لقد نبهنا الإمام إلى أهمية العالم من دون أن يذكر اسمه، كما نبهنا إلى أهمية صناعة السؤال المطروح على العالم.

وقال الباقر (عليه السلام) : «إن العالم والمتعلم في الأجر سواء، يأتيان يوم القيامة كفرسي رهان يزدحمان»[٦] الطرف الأوّل في التشبيه العالم والمتعلم في حالة أخذ الأجر أيًّهما أكثر وقد يتبادر للوهلة الأولى أنه العالم، وأما الطرف الثاني فهو (فرسي الرهان) في حالة استباقهما وركضهما، حيث إن كل واحد منهما يسعى حثيثاً للفوز والسبق، وقد استحدثت العلاقة بين طرفي التشبيه من خلال الأداة (الكاف) فانتجت شيئاً ثالثاً.

«إنَّ الصورة هي تركيب تخيلي يستند إلى ظاهرة واقعية تقابلها ظاهرة أخرى تفترق عنها ماهية، لتنتج نمطاً ثالثاً من الظواهر... إنَّ الصورة هي احداث العلاقة بين الظاهرتين لا وجود لهما في عالمنا الواقعي بحيث تنتج ظاهرة ثالثة»[٧].

وهذه الظاهرة الثالثة لا وجود لها إلاّ في أذهاننا، وذلك لتعميق شعورنا بالأمر الذي يريد البليغ، فالتشبيه وسيلة من وسائله اللغوية لنقل المعاني بطريقة معبِّرة ومؤثرة. وقال الإمام الباقر (عليه السلام) : «إنَّما مثل الحاجة إلى من أصاب ماله حديثاً كمثل الدرهم في فم الأفعى أنت إليه محوج وأنت منها على خطر»[٨].

«إنَّ مبعث الجمال في تشبيه المعنوي بالحسي أن تشخيص المعاني وتجسيد المشاعر والخواطر يكسبها قوّة ويضاعف من تأثيرها في النفس، لأنَّ الأشياء المحسوسة مأنوسة مألوفة لدى النفس البشرية»[٩]. هنا يرسم لنا الإمام صورة تشبيهية وهي صورة الحر فقد يحتاج للاستدانة أو الاستعانة بإنسان لم ينشأ في الخير، ولم يتعوَّد على البذل والسماحة، وقد حصلت له الثروة حديثاً، وهنا يعمد الإمام الباقر (عليه السلام) إلى صورة غير مألوفة، صورة الأفعى وهي تحمل المال في فمها، كما أنه يوجد في فمها شيء آخر كلنا نعرفه، وهو السم الذي قد تزرقه في جسم من تعضه بأنيابها، «يحمل أسلوب التشبيه في العربية معنيين اثنين: معنى المقارنة، ومعنى الوصف غير المباشر، وقد يكون هذا المعنى الأخير نتيجة للأوّل ومترتباً عليه، ذلك أننا حين نعمد إلى تشبيه شيء بشيء فإنما نعقد بينهما نوعاً من المقارنة في الظاهر، ولكن هذه المقارنة لا تهدف إلى تفضيل أحد الشيئين على الآخر، وإنما ترمي إلى وصف المشبه بمثل ما اتَّصف به المشبه به»[١٠].

إنَّ وجه الشبه هو احتياجك إلى شيء عند من تخشى بوادره، وأن يصل منه سوء إليك، ولكن الإمام رسمه لنا في صورة مثيرة جداً.

وقال الإمام الباقر (عليه السلام) : «إنَّ علياً (عليه السلام) بابٌ فتحه الله، فمن دخله كان مؤمناً، ومن خرج منه كان كافراً، ومن لم يدخل فيه ولم يخرج منه كان في الطبقة الذين قال الله تبارك وتعالى: لي فيهم المشيئة»[١١].

لقد صوّر لنا الإمام الباقر (عليه السلام) ولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) وإمامته ببوابة مدينة، فمن دخل أي آمن بولايته فهو مؤمن، ومن خرج منه أي كفر وأنكر ولايته وإمامته مثل الخوارج والنواصب فهو كافر، ومن

توقف في ولايته لم يثبتها ولم ينكرها ويجحدها فهو في الطبقة التي لله فيها المشيئة أي عذَّبها أو عفى عنها.

إنَّ ما يلفت الانتباه في التشبيه هي القدرة على إيجاد إئتلاف بين طرفين يبدوان متباعدين، إننا اعتدنا صور الأشياء بهذا الثبات، والمبدع هو من يحرِّك هذا الثابت في أنظارنا، فيؤلف بين المتباعدات، وبهذا النحو ستبدو الصورة التشبيهية في غاية الإثارة والدهشة والمؤثرة في النفس.

وقال الباقر (عليه السلام) : «يا معشر الشيعة ـ شيعة آل محمد ـ كونوا النمرقة[١٢] الوسطى يرجع إليكم الغالي، ويلحق بكُم التالي، فقال له رجل من الأنصار يقال له سعد: جعلت فداك ما الغالي؟ قال: قوم يقولون فينا مالا نقولُهُ في أنفسنا، فليس أولئك منا ولسنا منهم، قال: فما التالي؟ قال: المرتاد يريد الخير، يبلِّغه الخير يؤجر عليه، ثم أقبل علينا فقال: والله ما معنا من الله براءة ولا بيننا وبين الله قرابة، ولا لنا على الله حجَّة، ولا نتقرَّب إلى الله إلاّ بالطاعة، فمن كان منكم مطيعاً لله تنفعه ولايتنا، ومن كان منكم عاصياً لله لم تنفعه ولايتنا، ويحكم لا تغترُّوا، ويحكم لا تغترُّوا»[١٣].

أي كونوا مثل الوسادة المتوسطة على ظهر البعير والتي تجعل الراكب متزناً على ظهر مركوبه، فلا يميل يميناً ولا شمالاً، الإمام ينهى عن التطرّف في التشيع، فلا يغلو ويقول في الأئمة مالا يقولونه في أنفسهم، كما لا يقصِّر في معرفتهم، وهذا تشبيه بليغ حيث حذفت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه، فالإمام الباقر (عليه السلام) يطلب من الشيعي أن يكون عوناً ومساعداً للآخرين في الاتزان في النظر إلى أهل البيت عليهم السلام، كما أن النمرقة الوسطى تعين الراكب على الاتزان فلا يميل الراكب بواسطتها يميناً ولا شمالاً، هكذا ينبغي أن يكون الشيعي معيناً لكل مسلم في معرفة أهل البيت عليهم السلام معرفة صحيحة، فيخرجهم من حد الربوبية وصفاتها، كما ينزههم عن كونهم تابعين لغيرهم في الفقه والتفسير ومعرفة الدين، بل هم علماء فقهاء حلماء.

وقال الباقر (عليه السلام) : «ما ذئبان ضاريان في غنم قد فارقها رعاؤها، أحدهما في أوّلها والآخر في آخرها، بأفسد فيها من حبِّ المال والشرف في دين المسلم [١٤].

وهنا تجد الإمام قدَّم ذكر المشبه به على المشبه، بخلاف المعهود في عملية التشبيه، كما أنَّه استعمل صيغة التفضيل كأداة للتشبيه ولبيان وجه الشبه في الوقت نفسه، إنَّ الإمام جعلنا نتخيَّل صورة بشعة ومفزعة وهي صورة قطيع من الغنم وقد هاجمه ذئبان ضاريان يمزقان أجساد الغنم بكل وحشية وسرعة، حيث لا يوجد محامٍ لها، ثم ينقلنا إلى المشبه الذي يريد أن يحذِّرنا منه، وهو الطموح غير المشروع إلى السلطة والمال بالنسبة إلى ديننا، وبهذه الصورة المتخيلة جعلنا الإمام ننتقل بخيالنا من الواقع القريب المألوف إلى واقع بعيد وجديد، كما حقّق الإثارة لنا فهزنا من أعماقنا في التفكير في الرئاسة غير المشروعة، حيث يوجد من هو أفضل منًا في توليها، وفي المال المكتسب بطريقة غير مشروعة، ومدى خطورة هذين الأمرين في محق ديننا، فالإمام يبتكر وسيلة تعبيرية عن تجربة شعورية بصورة بلاغية موحية، وهذا ما أسميه بالمستوى الشعري التشبيهي، فبلاغة التشبيه تكمن في نقل المتلقي من

صورة الشيء نفسه إلى صورة شيء طريف ومثير يشبهه، أو صورة بارعة تمثله، وكلما كان هذا الانتقال بعيداً كان التشبيه أروع للنفس، وأجذب للتخيل وأدعى للإعجاب والإثارة.

وفي باب الاقتصاد في العبادة نجد للإمام الباقر (عليه السلام) وصية تضمّنت تشبيها حيث يقول «إنَّ هذا الدين متينٌ، فاوغلوا فيه برفق، ولا تكرهوا عبادة الله إلى عباد الله، فتكونوا كالراكب المنبت الذي لا سفراً قطع، ولا ظهراً أبقى»[١٥].

إن الإمام يرسم لنا صورة من يجهد نفسه في العبادة، ويضغط على نفسه في الإتيان بالمستحبات، ويستخدم الشدة في ذلك مع نفسه أو ذويه، والذي قد

يؤدي إلى عكس النتيجة المطلوبة؛ إذ قد يؤدّي للنفرة من الدين وكره العبادة لله، في صورة الراكب الذي أجهد دابَّته حتى أهلكها من سرعة السير وتحميلها ما لا تطيق، وبالتالي بقي من دون دابَّة فلا هو وصل إلى هدفه أو يقدر أن يصل إليه، كما أنَّه لم يحافظ على ما ملك وهو الدابَّة، بل عرَّضها للتلف والهلاك، إنَّ «الفن تعبير جمالي عن معاناة إنسانية»[١٦]. ويمكننا أن نقول: الإحساس الذاتي بالجمال الأدبي هو تأثر بظاهرة أدبية (سواء أكانت شعراً أم نثراً) تشيع في النفس البهجة والرضا والاكتفاء والسمو، بحيث يمسي الإنسان معها أعمق حسّاً بالوجود والأشياء، وأوفر تماسكاً، وأكمل إنسانية ممّا كان عليه قبل أن يقف بإزاء الإبداعات الأدبية الجميلة، فيتأثر بها وينفعل معها عن طريق المنافذ الحسية والمدارك الشعورية والعقلية التي تتيح له هذا التأثر والانفعال الإنساني المتعالي.

ويطالعنا وصف المؤمنين لدى الإمام الباقر (عليه السلام) بقوله: «المؤمنون هيِّنون لينون كالجمل الأنف[١٧] إذا قيد انقاد وإن أنيخ على صخرة استناخ»[١٨].

وهنا وإن رسم لنا الإمام صورة المؤمن الطيب السهل العريكة من خلال تشبيهه بالجمل الأنف والذي يمتاز بسهولة الانقياد وسهولة الاستناخة ولو في مكان وعر، وبذلك وصف لنا الإمام المجتمع المؤمن في سهولة وسرعة تفهمه وانقياده لقيادته الرشيدة، لكن يمكننا أن نلمح صورة تشبيهية خفية وكئيبة عن المجتمع اللامؤمن أو الذي لا يتسم بالإيمان الحقيقي، في

صورة الجمل الصعب الذي يتعب من يقوده، ولا يأنف من الزجر ومن الضرب، كما أنَّه لا صبر ولا تحمّل لديه كالجمل الأنف الذي إذا أنيخ على صخرة استناخ وتحمَّل وصبر، إنَّ الإمام يصوّر لنا المجتمعات البشرية بطريقة ذكية ومؤدبة، من خلال ذكر تشبيه واحد يوحي بتشبيه آخر للفطن اللبيب.

وفي نظري يبقى التشبيه مادة ووسيلة مهمة في الأداء البياني، يقدر البليغ أن يتفنن فيها، ويصوّر لنا المعاني فيها كيفما شاء، وليس من الصحيح أن

نعتبره وسيلة العقل البدائي أو أنَّه لا يناسب عصرنا الحاضر، حيث ذهب البعض «إلى أنَّ التشبيه لا يتوافق وطبيعة العصر الحاضر؛ لأنَّ التشبيه من خلال كونه يعتمد على أداة تربط بين الشيئين إنما يمثل أسلوباً بدائياً في التفكير، بينما لا نجد في الاستعارة أداة تربط بين شيئين، بل يندمج الشيئان في شيء واحد، وفي الرمز الذي يجسد صورة حاضرة لما هو غائب، حينئذ يظلُّ هذان التعبيران أشدُّ عمقاً وأشدُّ حضارة من التعبير عن الحقائق من خلال التشبيه»[١٩].

ومثلما نجد غزارة التشبيهات عند الباقر (عليه السلام) نجدها عند ولده الصادق (عليه السلام)، ففي أحد أقواله في الأخلاق الحسنة نجد قوله: «إنَّ الخُلق الحسن يميث الخطيئة كما تميثُ الشمس الجليد»[٢٠].

إنَّ الإمام الصادق (عليه السلام) أراد أن يعمِّق شعورنا وإدراكنا بأهمية الخلق الحسن ومدى تأثيره في إصلاح النفس، حيث سيكون داعية إلى ذوبان الرغبة في ارتكاب الخطايا، ومن أجل ذلك نقلنا إلى صورة طريفة ومؤثرة، وهو شروق الشمس على الجليد حيث تكون الشمس داعية إلى ذوبانه واضمحلاله، لقد ربط الإمام بين هاتين الظاهرتين لوجود شبه حقيقي بينهما أدركه، وهو تذويب شيء لشيء آخر وقدرته على موته، إنَّ مبعث الجمال في تشبيه المعنوي بالحسي أنَّ تشخيص المعاني وتجسيد المشاعر والخواطر يكسبها قوة ويضاعف من تأثيرها في النفس «لأنَّ الأشياء المحسوسة مأنوسة مألوفة لدى النفس البشرية، إذ يلتقطها الإنسان بحواسه منذ خروجه إلى الوجود وتفتح عينيه على مظاهر الطبيعة

الشاخصة من حوله»[٢١] ولذا تشبيه الأفكار المدركة بالعقل بالظواهر المدركة بالحواس، يكشف الحجاب عن المعاني، حتى كأنَّنا ننظر إليها بأعيننا لا بعقولنا، وهذا ما يمكن تسميته بشعرية الأداء البياني «على أنه لا ينبغي لنا ـ عند تقدير قيمة تشبيه المعنوي بالحسي ـ أن نغفل ما ينطوي عليه هذا اللون من

التشبيه من عنصر الغرابة والطرافة، الذي يتمثل في الجمع بين أشياء أبعد ما تكون من التقارب والائتلاف حيث تتعانق فيه المعاني الذهنية والحالات الشعورية مع الأشياء المحسة، وكلا الأمرين من وادٍ بعيد عن الآخر، ولا شكَّ أنَّ الغرابة والطرافة كليهما عنصر له دوره في فنية التعبير وجماله»(٢٢).

ونجد الإمام الصادق (عليه السلام) يتفنَّن في تشبيهاته، فقد يأتي بتشبيهين في آن واحد وفي لوحة تشبيهية واحدة، فنراه يقول: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ ليتعاهد المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالهديَّة من الغيبة، ويحميه الدنيا كما يحمي الطبيب المريض»(٢٣).

في التشبيه الأوّل يرسم لنا الإمام البلاء الذي ينزل بالمؤمن دوماً بالهدية التي يشتريها أو يجلبها معه الرجل المسافر إلى زوجته أو ولده، ومن المعلوم كلّما كان الرجل محباً لأهله جاءهم بهدية جيدة، إن الإمام ينظر إلى الآلام والمصائب التي تصيب المؤمن من غير اختيار أو تقصير، على أنها منحٌ من الله عزَّ وجلَّ، إنه يدعونا للتفكير المعمق في البلاء، وأنه شيء مخطط له من قبل الله عزَّ وجلَّ لمصلحة عبده المؤمن وسعادته، كما يفعل الزوج أو الأب عندما يغيب ويسافر فهو يريد أن يدخل السرور على أفراد عائلته، ولذا يجلب معه الهدايا، فالحزن الذي يدخل على المؤمن من البلاء في جوهره فرح له في حياته الأبدية.

وفي التشبيه الثاني يرسم لنا الإمام ما يصنع الله مع المؤمن بما يصنع الطبيب مع مريضه الذي يعالجه، حيث يحذّره من تناول أشياء أو استعمال أشياء أو القيام بأعمال تتسبب في الإضرار بصحته، فالله عزَّ وجلَّ في تحريمه لأشياء على المؤمن إنما هو لأجله ولأجل سعادته وكماله.

إذاً يصوّر لنا الإمام أنَّ كلَّ بلاء يصيب المؤمن في دار الدنيا، وكلّ شيء نهاه الله عنه هو من أجل سعادته ومنفعته، لا أنه لمضرته أو يكون عبثاً لا هدف وحكمة من وراءه، ومن أجل بيان هذا المعنى وتعميق شعورنا به عمد الإمام

إلى تصوير لوحة فنية طريفة مؤلفة من تشبيهين مألوفين في حياتنا، إنَّ التشبيه يحقق الإثارة للموهوبين من الناس فيفجّر ينابيعهم الإبداعية ويحفِّزهم لاستعمال وسائلهم التعبيرية ليعبِّروا عن تجاربهم الشعورية بصورة بلاغية موحية، تحمل في طياتها رؤاهم التي أدركوها من خلال أحلامهم اليقظة، والتي تأتي كنتيجة لمعارفهم الذهنية التي يتعاملون معها تعاملاً وجدانياً، لا تعاملاً رياضياً كما في علم الرياضيات والفيزياء والكيمياء، ويمكنني التصريح هنا بما اعتقده وهو: إن التعبير الأدبي الجمالي ضروري للإنسان كضرورة التكنولوجيا إن لم يكن أعلى منها بمراتب، إننا من خلال الأدب الجمالي نقدر أن نخرج الإنسان من دائرة الآلية المملّة إلى آفاق رحبة يجد فيها الإنسان أو يستعيد فيها الانسان طمأنينته وسكينته، وهذا ما يفسر لنا استعمال رجال الدين للغة الشعرية، للغة الأدبية الجمالية في مواضع ومناسبات كثيرة، إذ أدركوا منذ القدم أن اللغة الاعتيادية واليومية أو اللغة العلمية الصرفة، وحتى اللغة الفلسفية لا تسعفهم في تحقيق مبتغاهم من الكلام مع الآخرين، ولذا لا ينبغي الابتعاد عن الدين ونصوصه ونحن ندرس اللغة والأدب، وسنجد هنا نعم العون في صياغة قواعد اللغة وفي صياغة مفاهيمنا حول البلاغة والشعرية، وهذا ما أدركه وعمل به الجرجاني في كتابيه (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز)، وما أريد قوله: كما أن دراسة اللغة والأدب مفيدة لرجال الدين لفهم النصوص والمتون الدينية، فإن دراسة الدين ونصوصه حتى في عصرنا الحاضر مهمة للغاية في النحو العربي وفي فهم الأدب العربي ونقده، ولكن أهملت دراسة النصوص الفنية التي صدرت عن أهل البيت في الأعصر المنصرمة.

ويلتفط الإمام صورة معهودة لدى المؤمنين والمسلمين ليبين لنا الفرق بين الإيمان والإسلام حيث يقول: «إن الله فضل الإيمان على الإسلام كما فضل الكعبة على المسجد الحرام»[٢٤]

أمّا الفرق بين الإيمان والإسلام فلعلَّ الإمام الصادق (عليه السلام) أفاده من قوله تعالى: (قَالَتْ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلْ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)[٢٥] ثم انتزع الإمام مثالاً بارزاً في حياة المسلمين ليشبه به هذا المعنى المستفاد من كتاب الله المجيد، فكل مسلم يدرك الفرق البين بين الكعبة والمسجد الحرام، فهذا الربط غير المتوقع بين طرفي التشبيه يحمل معه عنصر الإثارة الذي يدعو للتوقف والتأمّل في الفرق بين معنى الاسلام ومعنى الإيمان، وإنهما ليسا شيئاً واحداً وإن كان أحدهما جزءاً من دائرة الآخر، فكل مؤمن مسلم، ولكن ليس كل مسلم مؤمناً، كما أن الكعبة جزء من المسجد الحرام، ولكن في نفس الوقت ليس المسجد الحرام جزءاً من الكعبة مع لحاظ كون الكعبة أشرف وأفضل، وهذه براعة من الإمام في رسم صورة تمتلكنا وتحدث لنا تحولاً عن طريق فيض وجودها، تنبثق

من خلالها مفاهيم دقيقة عن الدين. فقد بيَّن لنا الإمام أن الإسلام هو ما عليه عامة الناس من إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة والحج والصيام وهو نافع لهم في دار الدنيا، وأما إذا أرادوا الثواب في الآخرة والسعادة الأبدية فلابدّ أن يكونوا مؤمنين، ولا يكونون كذلك حتى يسلموا لله عز وجل وللرسول (صلى الله عليه وآله) فيما أمرا ونهيا ومنه الكون مع الصادقين من عترته وأهل بيته عليهم السلام.

ويفجئنا الإمام الصادق (عليه السلام) في تشبيه صحبة المنحرفين عن الشريعة بقوله: «إياك وصحبة الفجَّار، فإنَّهم صخرةٌ لا ينفجر ماؤها، وشجرةٌ لا يخضرُّ ورقها، وأرضٌ لا يظهرُ عشبُها»[٢٦]. وهنا يمكننا أن نبيّن هذا التشبيه على نحوٍ نعيد فيه إبداع الصور الماثلة فيه من جديد، نكشف فيه عن المسكوت عنه في تلك اللغة الشعرية. وبناءاً على ذلك، مثلما ينفصل المبدع عن الحياة اليومية واللغة المألوفة، يجب علينا أن ننفصل عن النص، وليس نتجاهل النص، إذ سيكون ذلك بلا معنى، ولكن إظهار استجابتنا الخاصة للنص عن طريق بيانه؛

ذلك لأن النص يسحبنا نحو شيء ما في حين أن تجاوزنا للنص يجعلنا قادرين على إظهار المعاني والدلالات المتحجبة عنا فيما وراء النص، أو فيما وراء البعد المحسوس من الصورة، فإنها بمثابة دعوة للمتلقين للانفتاح على عالم الصورة، والنفاذ بخيالهم إلى الوجود الباطني لها، بل وتحفيز للذات الواعية أو المتلقي للبحث عن المعاني والدلالات المختلفة عمّا هو ظاهر في النص.

إن الإمام رسم لنا صورة كالحة عن الفجار في غاية الكلوحة، لقد أوصد الإمام باب الأمل في وجوهنا إذا ما فكرنا في الانتفاع بصحبتهم، فجاء بثلاث صور تشبيهية يمكن أن تتحد وتتحول إلى لوحة تشبيهية واحدة، فالإمام يفسح للمتلقي بالمشاركة بخياله في رسم صورة تشبيهية جديدة منبثقة من تشبيهات الإمام الثلاث، إنَّ رساماً بارعاً يقدر أن يستفيد من تشبيهات الإمام ليرسم لوحة عن قطع الرجاء في شيءٍ ما، كما أن مخرجاً فذاً يقدر أن يستفيد من هذه الصورة التشبيهية في صنع لقطة مثيرة تمثل يأس إنسان من آخر، وما أريد قوله هو: يمكن استفادة فنٍّ من فنٍّ آخر، وهذا بحدّ ذاته يتطلب قدرات فنية متميزة، وإلى تخصص وتدريب عالي الكفاءة، فمثلاً من الممكن أن يستفيد فن السينما والإخراج التلفزيوني من صور الأداء البياني الموروث والحديث في صنع لقطات مثيرة لخيال المشاهد. «وهذا الإحساس الذي تولده الصورة في المتلقي هو الإحساس بالنمو المفاجئ الذي نجده ونحن في حضرة روائع الفن العظيمة، فقوة الصورة تكمن في قدرتها على التأثير الإنفعالي... لأنَّ المتلقي يرى نفسه مصوّرة في الصورة المرسومة، فيرى فيها مشاعره وعالمه الداخلي»[٢٧] فمثلاً يلتقط لنا الإمام صورة نادرة تعرّفنا بأرواح المؤمنين حيث يقول: «الأرواح مجندة تلتقي فتتشامُّ كما تتشامُّ الخيل، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف، ولو أن مؤمناً جاء إلى مسجد فيه أناس كثير ليس فيهم إلاّ مؤمن واحد لمالت روحه إلى ذلك المؤمن حتى يجلس إليه»[٢٨].

فالإمام الصادق (عليه السلام) يرسم لنا صورة نادرة للخيل الأصيلة وهي تتعارف على بعضها البعض وتتواد، وهي تعتمد في هذا التآلف لا على البصر فحسب، بل على حاسّة الشم (تتشام) أي يشم بعضها البعض، وهذا من غرائب سلوكيات الخيل التي تنفرد بها عن سائر الحيوانات وهو ما يكشف لنا خبرة الإمام بالخيل وطبائعها، ثم يقرن هذه الصورة مع صورة أرواح المؤمنين في تعارفها وسرعة تآلفها، ويمكن القول إنَّ الإمام لا يبدع كما يحيا وإنَّما يحيا كما يبدع، بمعنى آخر هو يبدأ بالواقع وبما يشاهد فيه ويسمع ولكن على النحو الذي يعيد فيه تشكيل وإبداع هذا الواقع من جديد، بحيث يبدو كوجود جديد لم نلتق به من قبل، ولن نلتمس له وجوداً خارج الصورة الفنية. وكأنَّ الإمام لن يهتم بالصورة الفنية كمجرد بديل بسيط للواقع المحسوس، إذن يعيد إضفاء الطابع الحيوي على الواقعي، كما يكشف عن الجمال الأليف الكامن في باطن الأشياء عن طريق إبداع الجديد.

وهنا أتساءل إلى كم يقدر أن يستفيد فن السينما والإخراج التلفزيوني من هذا المشهد، في رسم صورة تعارف موفقة بين شخصين، ستكون بينهما علاقة حميمة؟

وللإمام تصوير آخر للإئتلاف والإختلاف هو: «إنَّ سرعة ائتلاف قلوب الأبرار إذا إلتقوا وإن لم يظهروا التودد بألسنتهم كسرعة اختلاط ماء السماء بماء الأنهار، وإنَّ بعد إئتلاف قلوب الفجار إذا إلتقوا وإن أظهروا التودُّد بألسنتهم كبعد البهائم من التعاطف وإن طال اعتلافها على مذودٍ واحد»[٢٩] ويمكننا أن نلمح في هذا التشبيه مدى الغرابة والطرافة حيث جمع الإمام بين أشياء أبعد ما تكون عن التقارب والإئتلاف، فتعانقت في هذا الجمع المعاني الذهنية والحالات الشعورية مع أشياء مادية محسوسة، وهذا عنصر له دوره في فنية التعبير وجماله، ويظل «التشبيه وسيلة لتصوير الإنفعال، وإيضاح معانيه،

وهو بذلك يحقق للآخر الانتقال بالخيال من الواقع القريب المألوف إلى واقع بعيد جديد، كما يحقق الإثارة للموهوبين من الناس فيهزُّ طاقاتهم الإبداعية، ويستثير وسائلهم للتعبير عن تجاربهم الشعورية بصورة بلاغية موحية»[٣٠].

فقد جمع الإمام بين قلوب الأبرار والماء حيث رمز الصفاء والطهارة، وجمع بين قلوب الفجار والبهائم حيث رمز الغباوة والقساوة.

فالإمام يقرن إلى التشبيه أسلوب التضاد في رسم صورة لقلوب الأبرار وقلوب الفجار في لوحة تشبيهية واحدة مكتنزة بالدلالات، التي يمكن أن تثري المتلقي بمعرفة وجدانية بعلاقات الناس مع بعضهم البعض الآخر، فبمقدار ما هي واهية في مجتمع الفجار، هي قوية ومتينة في مجتمع الأبرار، ولكن الإمام لم يعتمد على لغة مباشرة لأداء هذه المعاني، وإنَّما عمد إلى شعرية الأداء البياني المتمثلة بالتشبيه المعتضد بالتضاد، وهذا ما يفجئنا به القرآن الكريم في مواطن كثيرة كما في سورة النور[٣١].

فالأديب يمتلك لغتين: اللغة الشعرية أو لغة الصورة التي فيها تكمن ماهية اللغة حيث التأثر الوجداني، واللغة الأداتية التي فيها تختزل ماهية اللغة حيث تتخذ أداة لتوصيل المعلومات مباشرةً.

الملخص

تناول هذا البحث تعريف التشبيه حيث أظهر أن المعرفة الجديدة التي يكتسبها المتلقي من الصور التشبيهية النادرة القائمة على الخلق والإبداع تزيد المعنى المراد نقله وضوحا وتألقا في نفس المتلقي .

وقد وردت في هذا البحث نماذج عديدة من التشبيه عند الإمامين الباقر والصادق (عليهما السلام) حيث تفننا في صياغة صوره وجاءا بصور غير مألوفة فاجئا

بها المتلقي ، مما أوحت له بمعان دعته للتفاعل الوجداني للنص ، وهو غاية مايطلبه الأديب .

إن مايلفت الإنتباه في تشبيهات الإمامين هي القدرة على إيجاد الإئتلاف بين طرفين يبدوان متباعدين ، حيث ان المتلقي اعتاد صور الأشياء بهذا الثبات ، والمبدع هو من يحرك هذا الثابت في نظره ، وبهذا النحو ستبدو الصور التشبيهية في غاية الإثارة والدهشة .

Abstract

This study deals with the poetic levels in the expressions of imams al – baqhir and al – sadiqh as an attempt to study the poet secrets of their speech and this involves a preface thrugh weich we might be acquainted with their characteristics lives eras and heritages as well as the concept of poetics to know that it is the literary speech laws and that the important element of adding a literary feature to the language is the depicton which enable the poet or the writer to attract the receivers attention .

The study found that the two Imams had invested many rhythmic forms types of the rhetoric performance and different structural styles to create and innovate poetic levels that attract their receiver to sy mpathy with them and what motivates us to study the religious heritage which we inherit from the Imams.

هوامش البحث

(١) الإيضاح : ٢١.

(٢) علم البيان ، عبدالعزيز عتيق :٦٢.

(٣) الكشاف المنتقى لفضائل علي المرتضى ، الفتلاوي : ٢٠٣.

(٤) التشبيه والإستعارة ، يوسف أبو العدوس : ٨٨.

(٥) مسند الإمام الباقر (ع) ، العطاردي ١: ١٧٤.

(٦) مسند الإمام الباقر (ع) ١ : ١٧٣.

(٧) دراسات في علوم القرآن الكريم :٣٩٢.

(٨) تحف العقول :٢١٢.

(٩) التعبير البياني ، شفيع السيد :٧٤.

(١٠) نفس المصدر :٣٧.

(١١) أصول الكافي :٢٦١.

(١٢) النمرقة : الوسادة . ظ لسان العرب : مادة نمرق.

(١٣) أصول الكافي :٣٧١.

(١٤) وسائل الشيعة ١٦ :٢١.

(١٥) الوافي ٤ : ٣٥٩.

(١٦) الفن والأدب ، ميشال عاصي : ٣٧.

(١٧) الأنف : "ليس يمتنع على قائده في شيء".لسان العرب : مادة أنف .

(١٨) أصول الكافي :٤٥٨.

(١٩) دراسات في علوم القرآن الكريم :٤١٩.

(٢٠) الوافي ٤ : ٤٢٠.

(٢١) التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية : ٧٤.

(٢٢) نفس المصدر : ٧٨.

(٢٣) الوافي ٥ :٧٦٩.

(٢٤) أصول الكافي : ٣٤٤.

(٢٥) سورة الحجرات : آية ١٤.

(٢٦) موسوعة الإمام الصادق (ع) ، باقر شريف القرشي ٤: ٩٨.

(٢٧) وظيفة الصورة الفنية ، عبدالسلام الراغب : ٥١.

(٢٨) بحار الأنوار ٧١ :٢٧٣.

(٢٩) تحف العقول :٢٧٣.

(٣٠) بلاغة العرب ، علي سلوم :١٨٢.

(٣١) الآيات ٣٥ ـ ٤٠.

قائمة المصادر والمراجع

(١) أصول الكافي (محمد بن يعقوب ، ت ٣٢٨ هـ) ،ط مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ـ لبنان ، ط ١، ١٤١٧ هـ.

(٢) لإيضاح في علوم البلاغة ، القزويني ، ط دار مكتبة الهلال ، بيروت ـ لبنان ، الطبعة الأخيرة ، ٢٠٠٠ م.

(٣) بحار الأنوار ، المجلسي ، ط مؤسسة الوفاء ، بيروت ـ لبنان ، ط٢ ، ١٤٠٣ هـ.

(٤) بلاغة العرب ، علي سلوم ، ط دار المواسم ، بيروت ـ لبنان ، ط ٢ ، ١٤٢٥ هـ.

(٥) تحف العقول ، الحراني ، ط دار الشريف الرضي ، قم ـ إيران ، ط ١ ، ١٤٢١ هـ.

(٦) التشبيه والإستعارة ، يوسف أبو العدوس ، ط دار المسيرة ، عمان ـ الأردن ، ط ٢ ، ٢٠١٠م.

(٧) التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية ، شفيع السيّد ، ط مكتبة الشباب ، القاهرة ـ مصر ، ط ١ ، ١٩٧٧م.

(٨) دراسات في علوم القرآن ، محمود البستاني ، ط دار البقيع ، قم ـ إيران ، ط ١ ، ١٤٢٧ هـ.

(٩) الفن والأدب بحث جمالي ، ميشال عاصي ، ط مؤسسة نوفل ، بيروت ـ لبنان ، ط ٣ ، ١٩٨٠م.

(١٠) مسند الإمام الباقر ، العطاردي ، ط المجمع العالمي لأهل البيت (ع) ، قم ـ إيران ، ط١ ، ١٤٢٥ هـ.

(١١) موسوعة الإمام الصادق (ع) ، باقر شريف القرشي ، ط مهر أمير المؤمنين (ع) ، قم ـ إيران ، ط١ ، ١٤٢٨ هـ.

(١٢) الوافي ، الفيض الكاشاني ، ط مكتبة أمير المؤمنين علي (ع) ، اصفهان ـ إيران ، ط١ ، ١٤١١ هـ.

(١٣) وسائل الشيعة ، الحر العاملي ، ط مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث ، قم ـ إيران ، ط٢ ،١٤٢٤ هـ.

(١٤)وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم ، عبدالسلام الراغب ، ط دار فصلت ، حلب ـ سوريا ، ط١ ، ١٤٢٢ هـ.